من شعر الحروب الصليبية

ابن القيسراني يمدح نور الدين محمود زنكي

والشاعر هو: شرف الدين أبو عبد الله محمد بن نصر بن شاغر بن داغر بن خالد بن محمد المخزومي الخالدي. ولِدَ عام 478 هـ في عكا بفلسطين. تلقى علومه في دمشق وحلب. توطّدت علاقته بنور الدين زنكي، واشتهر بمديحه له في جهاده ضد الصليبيين. اتسعت شهرة ابن القيسراني حتى غدا من أشهر شعراء الشام، ولا ينافسه على هذا اللقب سوى ابن منير الطرابلسي، وكانت بينها منافسة ومساجلات شعرية حتى شبّههما الناس بجرير والفرزدق. تُوفِّي في دمشق عام 548 هـ.

هذي العزائمُ لا ما تدّعي القُضُبُ	وذي المكارمُ لا ما قالت الكُتُبُ
وهذه الهِمَمُ اللاتي متى خَطَبَتْ	تعثَّرتْ خلفَها الأشعارُ والخُطَبُ
صافحتَ يا ابنَ عِمادِ الدّينِ ذِرْوَتَها	براحَةٍ للمَساعي دونَها تَعَبُ
ما زال جَدُّكَ يبني كُلَّ شاهِقَةٍ ـ	حتى ابتَنَى قُبَّةً أوتادُها الشُّهُبُ
لله عَزمُكَ ما أمضى وهَمُّكَ ما	أفضى اتساعا بما ضاقت به الحقب
يا ساهِدَ الطَّرْفِ والأجفانُ هاجِعَةٌ	وثابتَ القَلْبِ والأحشاءُ تضطَرِبُ
أغْرَتْ سُيوفُكَ بالإفرَنْجِ راجِفَةً	فؤادَ رومِيةَ الكُبرى لها يَجِبُ
ضرَبتَ كَبْشَهُمُ منها بقاصِمَةٍ ـ	أودى بها الصَّلْبُ وانحطَّتْ بها الصُّلُبُ
قل للطغاة وإن صُمَّتْ مسامِعُها	قولاً لصُمِّ القَنا في ذِكْرِهِ أرَبُ
ما يومُ إنْبٍ والأيامُ دائلةٌ ـ	من يومِ يَغْرا بَعيدٌ، لا، ولا كثَبُ
أغَرَّكُمْ خُدْعَةَ الآمالِ ظَنُّكُمُ	كم أسلمَ الجهلُ ظنًّا غَرَّهُ الكَذِبُ
غضبتَ للدين حتى لم يَفُتْكَ رِضًى	وكان دينُ الهدى مرضاتَهُ الغضَبُ
طهَّرْتَ أرضَ الأعادي من دمائِهِمُ	طهارةً، كلُّ سيفٍ عندها جُنُبُ
والخيلُ من تحتِ قتلاها تَخِرُّ لها	قوائمُ خانَهُنَّ الرَّكْضُ والخَبَبُ
والنَّقْعُ فوقَ صِقالِ البَيْضِ مُنْعَقِدٌ	كما استَقَلَّ دُخانٌ تحتَه لَهَبُ

والسيفُ هامٌ على هامٍ بمعركةٍ ـ لا البَيْضُ ذو ذِمَّةٍ فيها ولا اليَلَبُ

والنَّبْلُ كالوَبْلِ هَطَّالٌ وليس له سوى القِسِيِّ وأيْدٍ فوقَها سُحُبُ

وللظُّبَى ظَفَرٌ حُلوٌ مذاقتُه كأنما الضرْبُ فيما بينهم ضرَبُ

خانوا فخانت رماحُ الطعنِ أيديَهُمْ فاستسلَموا وهي لا نَبْعٌ ولا غَرَبُ

كذاك من لم يُوَقِّ اللهُ مُهجَتَهُ لاقى العِدى والقَنا في كَفِّهِ قَصَبُ

أجسادُهُمْ في ثِيابٍ من دمائِهِمُ مسلوبةٌ وكأنَّ القومَ ما سُلِبوا

أنباءُ مَلحَمَةٍ لو أنها ذُكِرت فيما مضى نسيَتْ أيامُها العربُ

من كان يغزو بلاد الشرك مُكْتَسِبًا منَ الملوكِ فنورُ الدين مُحْتَسِبُ

ذو غُرَّةٍ ما سَمَتْ والليلُ مُعْتَكِرٌ إلا تَمَزَّقَ عن شمسِ الضحى الحُجُبُ

أفعالُه كاسمِهِ في كل حادثةٍ ـ ووجهُهُ نائبٌ عن وَصفِه اللقبُ

في كل يومٍ لفِكري من وقائعِه شُغْلٌ فكل مديحي فيه مُقْتَضَبُ

من باتتِ الأُسْدُ أسرى في سَلاسِلِه هل يأسِرُ الغُلْبَ إلا من له الغَلَبُ؟!

فمَلَّكوا سَلَبَ الإبرنزَ قاتلَه وهل له غيرُ أنطاكيةَ سلبُ؟

من للشقي بما لاقت فوارسُه وإن بسائرها من تحته قَتَبُ

عجبتُ للصَّعْدَةِ السمراء مُثمرةً ـ برأسِهِ إنَّ إثمارَ القَنا عَجَبُ

سما عليها سُمُوَّ الماءِ أرهَقَهُ أُنبوبُه في صُعودٍ أصلها صَبَبُ

ما فارقت عذباتُ التاجِ مَفرِقَهُ إلا وهامَتُه تاجٌ ولا عذَبُ

إذا القناةُ ابتغَتْ في رأسِهِ نَفَقًا بدا لِتَعْلَبِها من نَحْرِهِ سَرَبُ

كنا نَعُدُّ حِمَى أطْرَافِنا ظَفَرًا فمَلَّكَتْكَ الظُّبَى ما ليس نَحتسِبُ

عَمَّتْ فتوحُك بالأعدا معاقلَها كأنّ تسليمَ هذا عندَ ذا جربُ

لم يبق منهم سوى بَيضٍ بلا رَمَقٍ ـ كما الْتَوَى بعدَ رأسِ الحيّةِ الذَّنَبُ

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجبٍ ... يوليك أقصى المُنى فالقدسُ مرتقبُ

وائذن لموجك في تطهير ساحله ... فإنما أنت بحرٌ لُجَّةٌ لَجِبُ

يا من أعادَ ثُغورَ الشامِ ضاحِكَةً ... من الظُّبَى عن ثُغورٍ زانَها الشَّنَبُ

ما زلتَ تُلحِقُ عاصيها بطائِعِها ... حتى أقَمْتَ وأنطاكيةٍ حلبُ

حللت من عُقْلِها أيدي معاقِلِها ... فاستحْلفَتْ وإلى ميثاقِكَ الهَرَبُ

وأيْقَنَتْ أنها تتلو مراكزَها ... وكيف يَثبُتُ بيتٌ مالَهُ طُنُبُ

أجرَيْتَ من ثُغُرِ الأعناقِ أنفُسِها ... جَرْيَ الجُفونِ امتراها بارِحٌ حَصِبُ

وما ركَزْتَ القَنا إلا ومنك على ... جسرِ الحديدِ هِزَبْرٌ غَيْلُهُ أشِبُ

فاسعدْ بما نِلتَهُ من كل صالحةٍ ... يأوي إلى جنةِ المأوى لها حَسَبُ

إلا تكن أحدَ الأبْدالِ في فَلَكِ التَّـ ... ـقوَى فلا نَتمارَى أنَّكَ القُطُبُ

فلو تُناسِبُ أفلاكَ السماءِ بها ... لكان بينكما من عِفَّةٍ نسَبُ

هذا وهل كان للإسلامِ مَكْرُمَةٌ ... إلا شهدتَ وعُبّادُ الهوى غُيَبُ

- الخبَب نوع من عَدْو الخيل.
- كبشهم يعني قائدهم.
- البَيْض جمعُ بَيْضة وهي الخوذة. واليَلَب جُلود مقوّاة توضع على الرؤوس في الحرب للوقاية. وقيل بل هي الدروع والتروس. ويعني أنها لا تؤمّنهم بل تخونهم كما يفعل الخائن الذي لا يراعي ذمته عندما تستأمنه.
- الضَّرَب نوع من العسل.
- النَّبْع شجرٌ ذو عيدان صلبة تُتخذ منه القِسِيّ والسِّهام. والغرَب شجر ذو سيقان ليّنة ينبت حول الجداول، تُتخذ منه السهام. يعني أن سلاحهم بطل مفعوله من شدة هجوم المسلمين فلم يعد ينفعهم لذلك استسلموا.
- الثعلب، الثَّعْلبُ، من معانيها في المعجم: مخرج الماء من الحوض ونحوه. وهو هنا يعني أن القناة وهي الرمح تُحدِث فتحة في رأسه فيتسرب منها الدم منسكبا على نحره له سَرَبٌ أي مجرًى مرئي بوضوح.
- الشنَب هو جمال الثغر وبياض الأسنان. ولم يكن الشارب يسمى شنَبًا في الماضي.
- البارح هي ريح الصيف الحارة، والبارح الحصِب هي الريح الحارة التي تحمل الحصباء، وهي حبيبات الحصى، فتضرب بها الوجوه والعيون. ويعني أنك ضربتهم بالرماح في أعناقهم فأصبحت تسيل باستمرار كما تسيل عيون الذين تضربهم الريح الحارة بالغبار والحصياء في وجوههم.